المحاضرة الرابعة في مقياس المناهج اللسانية

المنهجان اللسانيان المعياري والمقارن

أ.د: محمد خاين

I- المنهج المعياري:

يؤكد الدارسون على أن المنهج المعياري أقدم منهج في دراسة اللغة، ويُقصد بتوظيفه تعليمها، ومرد ذلك انبناؤه على جملة من القواعد تمثّل معيارا يُحتكَم إليه في تحديد الخطأ والصواب، و هو بهذا المعطى المفصلي الذي ينماز به يصير على خلاف المنهج الوصفي تماما. ويقوم هذا المنهج على فرض القاعدة أي يبدأ بالكلّيات وينتهي بالجزئيات، إذ يعتمد القاعدة أساساً ويقصي الوصف، ويتأوّل ما يخرج عن القواعد الموضوعة تأسيسا له عن طريق استحداث تأويلات، أو بالحكم على ما خالف المعيار بالشذوذ والقلّة إذا انتفى التأويل المناسب.

تأسيسا على ما تقدم نفهم أن المعيارية منهج للبحث يهتم بوصف اللغة كما يجب أن تكون، لا كما هي كائنة، ومن ثمة أمكننا التقرير أن المنهج المعياري يصف اللغة المثلى أو اللغة على ما يجب أن تكون عليه، أو على أنها مثال يحتذى، بعيدا عن تدخل عاملي الزمان والمكان في الاعتبار، وذلك برد كل مقولة لسانية إلى الأصل.

وينظر إلى النحو على أنه المستوى اللغوي الأمثل في استخدام المنهج المعياري وتوظيفه؛ وذلك أنه لما كان الهدف منصبّاً في الغالب على تعليم الناشئة وغيرهم من المثقفين والمتخصّصين، رأيناهم يتّجهون بالنحو وِجهة تعليميّة، والتعليميّة أداةٌ معيارية، إذ بواسطتها يُمكن المحافظة على المستوى الصوابي لمعيارية اللغة . ومنه أخذا هذا المنهج سبيله تدريجيا إلى باقي مستويات الدرس اللغوي.

إنّ العناية التي نشأ النحو العربيّ من أجلها وهي ضبط اللغة وإيجاد الأداة التي تعصمُ اللاحنين من الخطأ فرضت على هذا النحو أن يتّسم في جملته بسمة النحو التعليميّ لا النحو العلميّ، أو بعبارةٍ أخرى أن يكونَ في عمومه نحواً معيارياً لا نحواً وصفيّاً .

يضاف إلى ما تقدم أسبابٌ أخرى كانت وراء شيوع استخدام المنهج المعياري أهمها: تأثّر النحو العربي بالمنطق، والمنطق الذي نعنيه هو منطق " أرسطو " الذي قال كثيرٌ من الباحثين بتأثيره في بعض الاتجاهات في

الدراسات العربية القديمة، ومنها الدراسات اللغوية. وهذا المنطق يُعنى بالصورة أكثر من عنايته بالمادة. ودرس اللغة ينبغي أن يركّز على المادة لا على الصورة، وتأثير المنطق على النحو يُبعده عن درس الواقع اللغوي كما هو. وعناية المنطق الأرسطي بالصورة أو ابلشكل جاءت نتيجةً لاهتمامه بالطبيعة الثابتة أو (الأنواع) من حيث ماهياتها الأزليّة، ونرى أنّ تعريف الأشياء وفقاً لهذا المفهوم قد تأثّر به النحو العربي من حيث تعريف الكلّيات النحوية كأبواب الاسم والفعل والحرف والمبتدأ والخبر ..... وكانت المعيارية نتيجةً لمقدّمةٍ منطقيةٍ أرسطيّة هي النظرة إلى الطبيعة بما فيها من أنواع وأشياء نظرة ثابتة لا تتغيّر .

ومن آثار المنطق في الدرس اللغوي عند العرب هو القول بالقياس والبرهان والعلل . وقد شُغل النّحاة ولاسيّما في القرن الرابع الهجري وما تلاه بهذه المبادئ واعتبروها أصولاً للنحو. حتى أنّ الزجاجي ردّ على الذين اتبعوا سيبويه في تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف تقليداً لا عن برهان وحجّة .

2-تجليات المنهج المعياري في الدرس اللغوي القديم :

- الأخذ من بعض القبائل واللهجات وترك قبائل ولهجاتٍ أخرى.
- إدخال بعض المناهج التي عرفت التقسيم والتحديد على البحث اللغوي مثل منهج علوم الحديث.
- وكذلك تقسيم الكلام إلى مطّرد وشاذ، وأيضاً التقدير والافتراض.

II-المنهج المقارن

1-مفهومه:

يحيل اسم المنهج أو وصفه بالمقارن على الوظيفة التي يؤديها في البحث: إذ إنها مقارنةٌ تعقد بين طرفين، وغالبًا ما تنصرف الدلالة عند استعمال هذا المنهج إلى طرفين محددين هما لغتان تنتميان إلى فصيلة لغوية واحدة، للوصول إلى الخصائص المشتركة بينهما. ومن الممكن أن يكون طرفا هذا المنهج عصرين أو مرحلتين في لغة واحدة، أو ظاهرة واحدة في كتابين أو أكثر أو غيرها من الممارسات المقارَنة، كالمقارنة بين المدارس المعجمية من حيث الترتيب الخارجي، أو طرق شروح الألفاظ، أو وسائل ضبط الكلمات.. وغيرها من أوجه المقارنة.

2-نشأته:

ولنا أن نرجع توظيف هذا المنهج واستخداماته في الدرس اللغوي إلى اكتشاف اللغة السنسكريتية في نهاية القرن الثامن عشر، فقد فتح هذا الاكتشاف الباب واسعاً أمام مقارنات علماء أوروبا بين لغتهم اللاتينية وكذلك اليونانية وهذا اللغة المكتشفة، لما وجدوا من نقاط تشابه بينها جميعا، وقد أنتجت هذه المقارنات التي استخدمها علماء اللغة التاريخيون عدة استنتاجات اعتُبرت فتحاً جديداً في الدراسات اللغوية التاريخية، فمن خلال استخدام

هذا المنهج " تمكن العلماء من تقسيم اللغات المختلفة إلى أُسَرٍ وفصائل بمقارنة هذه اللغات واكتشاف أوجه التشابه بينها من الجوانب الصوتية والنحوية والمعجمية. ووجود جوانب شبه أساسية بين عدد من اللغات معناه أنها انحدرت من أصل واحد مشترك أي من اللغة الأولى التي خرجت عنها هذه اللغات على مر التاريخ" وذلك بعد أن أدت هذه المقارنات التي أجراها العلماء على اللغات التي تتوزع على المساحة ما بين الهند وأوروبا إلى " عزل اللغات المنتمية إلى العائلة الهندية الأوربية عن غيرها من اللغات التي ظهر فيما بعد أنها تشكل بذاتها عائلات لغوية أخرى".

وقد اعتنى المستشرقون بدراسة اللغات السامية مقدمين بذلك بعض المناهج والدراسات التي كانت منارة لعلماء العربية المحدثين الذين حذو حذوهم في إخراج دراسات مقارنة تخص السامية، ومن هذه الدراسات:

-تاريخ اللغات السامية، لإسرائيل ولفنسون، نُشر عام 1914م بمصر

-اللغات السامية، للمستشرق الألماني نولدكه (ترجمه د. رمضان عبد التواب إلى العربية عام 1963 في القاهرة)

-فقه اللغة السامية، للمستشرق الألماني بروكلمان (ترجمه من الألمانية إلى العربية د. رمضان عبد التواب، ونشره سنة 1977 في جامعة الرياض).

3-علاقته المنهجين التاريخي والوصفي :

تتضح العلاقة بين المنهجين التاريخي والمقارن من خلال اعتماد علماء اللغة التاريخيين على الأخير في دراسة اللغات وخصائصها من منظور تاريخي تركيبي يعمل على بناء المتشابهات للوصول إلى أقدم مرحلة تاريخية تمثلها اللغة الأم، كما أنه قد يُعتمد عليه في المقارنة بين مرحلتين تاريخيتين.

وأما العلاقة بين المنهجين الوصفي والمقارن فتظهر فيما سبق لنا أن وصفنا به المنهج الوصفي من كونه سيد المناهج، فهو أساس لها لا تتم إلا به، وإلا فكيف سنعقد مقارنة بين عناصر لغوية معينة- على سبيل المثال- إلا بوصف كل عنصر منها وصفا دقيقا قائما على التحليل والاستنتاج ثم وصف العنصر نفسه في الطرف الآخر، ثم عقد مقارنة بين هذين الوصفين للوصول إلى نقاط الاختلاف والاتفاق بينهما.

4-خطوات المنهج المقارن:

تحديد موضوع المقارنة: على الباحث العلمي أن يقوم بتحديد موضوع البحث الذي سيقوم بعمل مقارنه له، ولكن ينبغي أن يقوم بالاطلاع على مشكلة البحث العلمي الخاص به بشكل كُلي، وبالتالي يتوجب عليه أن يتعرف على العينة التي سيعمل عليها.

وضع متغيرات المقارنة: وفي هذه المرحلة سيقوم الباحث بالوصول إلى نقطة الاتفاق ونقطة الاختلاف بين المتغيرات التي سيقوم بوضعها في بداية بحثه العلمي، ويستطيع هنا أن يقوم بدراسة المتغيرات بطريقة سهلة.

تفسير بيانات موضوع المقارنة: لا بد أن يقوم الباحث العلمي بالاطلاع على عدد من الأبحاث العلمية التي تناقش نفس الظاهرة موضوع دراسته، وبالتالي سيكون من السهل المقارنة ومن ثمة يسهل عليه الوصول إلى نتائج نهائية.

الوصول إلى نتائج المقارنة: بعد أن ينتهي الباحث العلمي من عمل مقارنة بين موضوع الدراسة وبين النتائج التي حصل عليها من البحث يستطيع في هذه الحالة أن يقوم بنشر بحثه العلمي المزود بعدد من النتائج التي تخدم العلم.